التعانق اللغوي الثقافي بين اللغة العربية ولغة سُعَيْ sonay

دراسة وصفية تحليلية

أ.د. عبد الرحمن عبد الله سيسي

مدير التعليم بمعهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية (تنبكت) تمبكتو/ مالي

تمهيد

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق أهداف، تتمثل في:

- دراسة تأثير اللغة العربية والثقافة الإسلامية في شعب سُعَيْ لغةً وثقافةً.
- شرح الأسباب التي أدت إلى هذا التأثير.
- إثراء مظاهر التنوع اللغوي والثقافي في المجتمع الإسلامي.

المنهج:

استعمل الباحث المنهج التاريخي والوصفي التحليليين.

عناصر الموضوع:

سعياً لتناول الموضوع بسهولة؛ قسمته إلى عناصر فرعية متسلسلة يستدعي بعضها بعضاً، وهي:

أولاً: ما المقصود بلفظ: سُعَيْ؟.

ثانياً: العلاقة السُعَوِيَة العربية.

ثالثاً: مظاهر تأثر لغة سُعَيْ بالثقافة العربية الإسلامية.

أولاً: ما المقصود بلفظ: سُعَيْ؟:

استعملت هذه الكلمة (سُعَيْ) منذ أمدٍ بعيد، وتداولتها الأجيال، فتناقلها الركب حتى اتسعت رقعةُ استعمالها،

وتنوّعت بيئاتها، فعبثت بها الألسنة على مَرّ الدهر، فطرأت عليها تحريفات نطقية، فإبهام دلالي. ولا يسمح هذا البحث بالاستفاضة، بل سيتم التركيز على: الضبط الصحيح للنطق، والدلالة الاجتماعية.

أ) ضبط اللفظ:

رسم المؤرخ السوداني الكلمة بـ«سُغَيْ»، ثم ضبطها بأنها تُنطق بسين وغين مضمومتين ممالتين فياء ساكنة: سُغَيْ[1] Soŋay ، ولكن خلّو لغة سُغَيْ من الصوت (ـغـ) أثار مشكلة أخرى؛ إذا لا يُعقل أن يتضمن اسم اللغة أو الشعب صوتاً لا وجود له فيها.

ههنا حوَّلنا المنهجُ اللغويُّ الوصفي والاجتماعي إلى المستخدمين الأصليين، فوجدناهم ينطقون الصوت: [غ](ŋ)، فتوصلنا إلى أن هذا هو النطق الصحيح، وأن الكاتب رمز له بصوت قريب منه لخلو اللغة منه، وهو صوت مركب من [ن غ] للدلالة على غ (ŋ).

ولا يزال هذا النطق هو المستعمل في النيجر Soŋoy، وقد تحولت حركتها إلى فتحة في منشورات وحدة لغة سُغَيْ بالأكاديمية المالية للغات Soŋay، وهو الاستعمال الشائع في جمهورية مالي، وخاصة لدى سكان كَاوُ Gaa wo – العاصمة التاريخية للإمبراطورية.

ب) دلالة الكلمة:

إضافةً إلى دلالتها على اللغة فإن كلمة سُغَيْ Soŋay تطلق على البلاد والشعب[2]، أما المؤرخ المسلم أحمد اليعقوبي (ت.٢٨٢-٨٩٥م)، فلم يذكر لفظ سُغَيْ، بل استعمل «كَوْكَوْ»، من باب إطلاق المحل مراداً به الحال، فقال: «مملكة كوكو (كاو) Gaawo، وهي أعظم ممالك السودان، وأجلها قدراً، وأعظمها أمراً، وكل الممالك تعطي لملكها الطاعة، والكوكو اسم المدينة...»[3].

ويمكن- إذاً- استنتاج دلالة واقعية اجتماعية لفظ سُغَيْ، بأنه يدل على الشعب والبلد، ليشمل كل القبائل القاطنة في المنطقة، وبخاصة الناطقة باللغة التي خلفتها الإمبراطورية كلغة تواصل، بصرف النظر عن الجذور العرقية، من فلاتة، وتوارق، وعرب... إلخ.

فسُغَيْ- إذاً- ظهرت نتيجة التعدد العرقي المتنامي عبر قرون، وخاصيتها: امتلاك الثقافة اللغوية الموروثة عن الممالك المتعاقبة. وذلك وفق مناهج الدراسات اللغوية والاجتماعية؛ لأن الإنسان يُصنَّف اجتماعياً عبر لغته وثقافته، كما قيل: «إن العروبة اللسان؛ فمن تكلم العربية فهو عربي»[4]، تُعدّ هذه العبارة قاعدة اجتماعية تصون المجتمعات من التعصب العرقي.

ج) انتشار لغة سُغَيْ ولهجاتها:

انتشرت هذه اللغة لتحقيق التواصل بين الشعوب المختلفة على اتساع قاعدة الإمبراطورية التي امتدت بين منحنى نهر النيجر «جني» شمالاً، حتى مصبّه «دندي» شمال غرب نيجيريا الحالية، باسطةً نفوذها على بحيرة تشاد شرقاً، حتى حدود «الولوف» في السنغال وغامبيا، مروراً بالنيجر وبنين وبُرْكينا فاسو[5]. ولها وجود في كلٍّ من واحات الجزائر،

(١) محمود كعت الثالث بن المختار القنبلي، تاريخ الفتاش، تحقيق عبد الرؤوف أحمد، وآخرون، ط١، معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص٦٧.

(٢) راجع، عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية بإفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة-١٩٦١، ص٥٩.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، مجـ١، ط٢، دار صادر ـ بيروت، ١٤١٥ه/١٩٩٥م، ص١٩٣.بيأبي

(٤) ورد في شكل حديث، ولكن ضعفه المحققون، راجع: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الألباني، دار المعارف، الرياض/ السعودية، جـ٢، ط١، ١٩٩٢م/١٤١٢هـ، ص٣٢٥. وقال ابن تيمية: «... لكن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه»، راجع: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، ص١٦٩.

(٥) راجع: حلمي شعراوي، تراث مخطوطات اللغات الإفريقية بالحرف العربي، ط١، المعهد الثقافي الإفريقي العربي- بماكو ٢٠٠٥م، ص٤٨٥.

والمغرب، وليبيا، والسودان، وغانا...

وأهم لهجاتها:

اللهجات الجنوبية التي تتمثل في:

- الشرقية – لهجة كاو، وزرما، في النيجر.
- الوسطى، في هبري مالي وبوركينا.
- الغربية، في إقليم موبتي (جني) وإقليم تنبكت.

اللهجات الشمالية التي تتمثل:

- **لهجة البدو:** تهشت Tihishti وغيرها، الجنوبية شرقي انغال Ingal بالنيجر، والدسوقن في مينكا – مالي.
- **لهجة الحضر:** المتمثلة في Balbali بواحات تبيلبل Tabellal بجنوب الجزائر، وكُورنج Karndje بالمغرب[١].

ثانياً: العلاقة بين السغوية والعربية:

أ) قبل الإسلام:

لم نقف على معلومات موثقة وجازمة تنفي وجود اتصال أو احتكاك متبادل بين الشعبين قبل الإسلام، بل إنه المحتمل الأرجح؛ لأن البلاد العربية تجاور بلاد السودان (النوبة والحبشة ـ الكوشية)، والآثار التاريخية تثبت تواصلاً، وتفاعلاً اجتماعياً إيجابياً وسلبياً بينها؛ لقيام التجارة والهجرة بين شرق إفريقيا وغربها، كما في مصادر عربية.

إن هجرة المسلمين إلى الحبشة تُعدُّ حدثاً تاريخياً عظيماً، يعكس المستوى السياسي القائم على العدل، وغلّب العقلانية العلمية على العاطفية لدى هذه الأمة، وربما يكون تعبيراً عن مكانة رحم الأمومة واللجوء إليها عند الشدة.

إن بلاد السودان، الممتدة من الجيزة على ضفاف النيل إلى جُلف بالسنغال أو المحيط، كانت واحدةً منفتحةً بعضها على بعض، وشهدت موجات بشرية مهاجرة أو نازحة نتيجة الأحداث الطبيعية والسياسية[٢]، يقول اليعقوبي: «وكان ولد حام بن نوح قصدوا عند تفرّق ولد نوح من أرض بابل إلى المغرب، فجازوا من عبر الفرات إلى مسقط الشمس، وافترق ولد كوش بن حام، وهم: الحبشة والسودان، لمّا عبروا نيل مصر فرقتين، فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب، وهم: النوبة، والبجة، والحبشة، والزنج، وقصدت فرقةٌ الغرب، وهم: زغاوة، والحس، والقافو، والمرويون، ومرنه، والكوكو (سُغَيْ) وغانة»[٣].

إن هذه الروايات التاريخية يمكن أن يُعتمد عليها علمياً؛ لأنها إما مستقاة من رواة ورحالة، وإما من كتب لم تصلنا، ويبرهن عليها بوجود علاقة رحمية تستدعي استمرارية التواصل بينها وتجعلها أمراً ممكناً، ويؤكدها ما رواه تاريخ السودان «... وهو قديم (بلد كُوكِيَا) جدّاً في ساحل البحر في أرض سنغي، كان في زمن فرعون، وحتى قيل: حشر منه السحرة في مناظرة الكليم عليه السلام»[٤]. وهذه العبارة تعدّ نصاً صريحاً في التواصل بين النيل والنيجر الذي سماه «البحر». ولم نجد ما ينقدها لا في الروايات الشفوية أو غيرها، بل إن العلاقات اللغوية تؤيدها، إذ هناك علاقة وثيقة بين لغة سُغَيْ والقبطية القديمة[٥].

ب) بعد البعثة النبوية:

إن الإسلام دين، والتدين ظاهرة اجتماعية تنتشر في المجتمعات على أيدي أفراد فتتطور تدريجياً، لا تُلاحظ إلا بعد التغلب على مظاهر الحياة الأخرى. ومن ثمّ عزّ على الكتّاب تحديد تاريخ معيّن لوصول الإسلام إلى أرض السودان الغربي، هل وصل في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، أو نصفه الأول[٦].

---

(١) راجع: حلمي شعراوي، المرجع نفسه، و:
- H, Amidou Maiga, P.75-69.
- Ibrahima Albarka Traore; Introductions aux structures des langues nationales du Mali, Thнse de doctorat de spйcialitй; CENTRE PEDAGOGIQUE SUPERIEUR DE BAMAKO 1985, pp. 3, 362, 363.

(٢) Michel Damblant , Moulaye Ali Traore, Ibrahim M Maiga , Mysters Songhai Ed ADDES, 2004, pp.16, 17,18.

(٣) اليعقوبي، مرجع سابق، ص١٩٣.

(٤) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، تحرير وتعليق حماه الله ولد سالم، ط١، دار الكتب العربية ـ بيروت ـ لبنان، ٢٠١٢، ص٣٧.

(٥) Michel Damblant, IBID, P.16-18.

(٦) راجع: حماه الله ولد السالم، المرجع السابق «التعليقات»، ص (٢٩-٣١).

ونميل إلى هذا الأخير؛ للروايات التاريخية التي تذكر أن عقبة بن نافع خلال فتوحاته وصل إلى منطقة كَوَارْ Kawar الواقعة في الطرف الشمال الشرقي لجمهورية النيجر، وأدخل فيها الإسلام[1]، ولا تزال النيجر عضواً فعّالاً من أعضاء سُغَيْ.

ثالثا: مظاهر تأثر لغة سُغَيْ بالثقافة العربية الإسلامية:

إن التواصل والاحتكاك لَيُقدّر بالثمر المقتطف منه من تأثير وتأثر، وخاصةً في المجال العقلي الكفيل بضمان الاستمرار أو الانقطاع؛ لذلك يتم التركيز هنا على مظاهر أثر العربية على شعوب سُغَيْ في النقاط الآتية:

أ) مرحلة التعرف والتآلف:

وصل الإسلام إلى بلاد سُغَيْ مصطحباً القرآن ولغته العربية وثقافتها، فاعتنق الشعب الإسلام، وانبهروا بالمسلمين العرب شكلاً وسلوكاً، فطفقوا يقلدونهم حُبّاً وتعظيماً في مختلف مظاهر الحضارة، وفي مقدمتها العقيدة، والعبادة، واللغة، وازدهرت العلوم الإسلامية والعربية المختلفة، وبرز فيها علماء من المنطقة، وأقبل الناس عليها، فتكفل الزمن باقتراض ألفاظ عربية كثيرة إلى لغة سُغَيْ Soŋay ciini، وصبّها في قالب نظامها اللغوي: صوتاً وبنيةً وتركيباً.

أهداف الاقتراض وحقوله:

استهدف الاقتراض تحقيق أهدافٍ في حقول مختلفة:

١- سد الفراغ اللغوي:

أثرى الدين الإسلامي بثقافته وعلومه ولغته العربية المجتمعات السودانية بمصطلحات: دينية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، لا مقابل لها في لغاتهم، فاقترضوها لسد الحاجة اللغوية، منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

أ- الحقل الديني:

أثرى الدين الإسلامي بثقافته وعلومه ولغته العربية المجتمعات السودانية بمصطلحات: دينية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، لا مقابل لها في لغاتهم

العربية	سُغَيْ
سجود	sujudu

هذه الكلمة مصدر عربي، وُضعت في قالب سُغَوِي بقصر الحركة الطويلة، فأُخضعت لنظام البنية بإلصاق السوابق، واللواحق، كما يأتي:

-Ka sujudu	حدث فعلي مجرد عن الزمن.
A sujudu	سجد [هو] للدلالة على الزمن الماضي.
A ga sujudu	يسجد [هو] للدلالة على الحال والمستقبل.
Sujuduyan	اسم للسجود.
Sujdukaw	ساجد - اسم فاعل.
Sujududo	محل السجود - اسم مكان.

العربية	سُغَيْ
الزكاة	Azzakaa

وهذه الكلمة أُخضعت لنظام بنية سغي بحذف التاء، وتطويل الحركة للتعريف.

ومثلها الكلمات الآتية:

العربية	سُغَيْ
القرآن	Alkuraana
سورة - نكرة	Suura
السورة - معرفة	Suuraa

(١) راجع الموقع:
http\\africanulana.org; 14/01/2020

آية	AAya
حِزْب	HIzib بتغيير صوتي
التوبة	Tuubi

ب- الحقل السياسي:

العربية	سُغَيْ
أمير - نكرة	Amiri
الأمير - معرفة	Amiiroo

تطويل الضمة؛ لاحقةً للتعبير عن تعريف المفرد في سُغَيْ:

العربية	سُغَيْ
أمراء	Amiiriyen ـ واللاحقة yen علامة جمع النكرة
الأمراء	Amiirey ـ واللاحقة ey علامة تعريف الجمع
القائد	Alkaydoo
الشريعة	Aššaraa
القاضي	Alkaaloo
عدل	Laadir
تدبير	Kadabari
الكياس (القياس)	Alkiyasa بمعنى التخطيط

ج- الحقل الاجتماعي:

العربية	سُغَيْ
الطبع	Attabuu
العادة	Alaadaa
الأدب (السلوك)	Aladabu
الجماعة	Aljamaa
اليتيم	Alyatimoo
العافية	Alaafiya
البأس	Albasi
العمر	Aloomur

د- الحقل الثقافي التربوي:

العربية	سُغَيْ
قلم	Kalam
دواة	Adawa
كتاب	Citabu تغيير صوتي
لوحة	Walaha تغيير في ترتيب الكلمة العربية
النحو	Nahwoo
صوت	Sawtu
قصيدة	Kasida
بيت شعر	Bayti
لبانة	Alubban

هـ- الحقل الاقتصادي: (المكاييل والموازين):

العربية	سُغَيْ
صاع	Saawal
مد	Muda

و- العملة:

العربية	سُغَيْ
الريال	Alliyaara
الكاتب	Katibi للفلوس، وهذا استخدم مجازي؛ لأن الكاتب مكلف بإمضاء العملة
بيت المال	Bayti Alman الخزانة العامة
بيت	Bayti ممتلك عام[1].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن العقيدة الإسلامية أدت إلى هجر كلمات سنغية كثيرة تتناقض ومقتضيات العقيدة الإسلامية، منها: أيام الأسبوع، فقد كان سُغَيْ يعظمون يوم الجمعة ويتقربون فيه بالذبائح إلى الروحيات المعبودة دون الله، ويُسمّى za-Zumbu: انزل وخذ، ولقد استُبدلت بتلك الأيام الأسماء العربية، ولم تعد تُعرف تلك الكلمات السنغية إلا في وسط ضيق على المحافظين على تراث السحر والكهانة، والمهتمين بالدراسات اللغوية، وفي المقابل أبقى الإسلام على ألفاظ ومصطلحات سنغية كثيرة جداً لا تتعارض مع العقيدة الإسلامية؛ شأن موقفه من اللغة العربية نفسها.

٢- الاعتزاز بالعربية وتعبير الرضى بها:

ترسَّخ الإسلام على أرض سُغَيْ وفي قلوب الشعب، فانفتحت القلوب لكل ما هو إسلام، وعربي، وتعامل السكان مع العربية باعتبارهم إياها الإسلام، والعرب سفراؤه.

أصبح تعلُّم العربية واستعمالها عنوان الحضارة وأمارة

صحة الدين، ودليل سعة الثقافة، يقول البروفيسور يوسف الخليفة أبوبكر- رحمه الله-: «إن للحرف الذي تُكتب به اللغة [أية لغة] تأثيراً نفسياً عميقاً على أهل اللغة التي تكتب بهذا الحرف من حيث ارتباطهم بتراث هذا الحرف، فهو في كل لغة يمثل جزءاً من التراث الشعبي للمتكلمين باللغة، ويمثل جزءاً من تاريخهم وحضارتهم وشخصيتهم في الماضي والحاضر، ويمثل بالتالي جزءاً من تكوينهم النفسي؛ لهذا فإن ارتباط الإنسان بالحرف الذي تُكتب به لغته تمتد جذوره إلى أعماق نفسية بعيدة الغور»[1].

ومن هذا المنظور؛ استعمل الناطقون بلغة «سُغَيْ» كلمات عربية كمترادفات لكلمات سُغَوِيَّة، مثل: أمانة: Nanay، تعب Taabi - Faraa، الكَوْل (القول) بمعنى العهد: Cini و seni.

ولا يزال هذا النوع من الاقتراض مستمراً في أوساط المثقفين، وفي شرائح المجتمع الأخرى.

إن المستمع إلى مناقشات هذا الشعب وحواراتهم الودية والمؤانسة الأسرية ليُفاجَأ بكلمات عربية حتى من الجالية المقيمة بالدول الغربية، ومن ثَمَّ يصعب إعطاء إحصائية دقيقة للكلمات العربية المقترضة إلى سُغَيْ، وقد بلغ بها بعض الباحثين إلى سبعين ومائتي (٢٧٠) كلمة[2]، ويذهب بعضهم الآخر إلى أن نصف المعجم السغوي تقريباً من العربية، إما بالأصالة أو التعريب[3].

ونرى أن الرأيين لا يستندان إلى دراسة علمية، ففي الأول تنقيص، وفي الثاني مبالغة، ولكن يلاحظ في سُغَيْ كلمات ذات صلة في جذورها بكلمات عربية، مثل:

Beri -: كبر - إبير Iberi: كبير.

- كينَ: صغر، وهذه المادة ذات صلة بـ كان يكين؛ بمعنى صغُر.

- Kaati كاتِ: بمعنى صرُخَ، وفي العربية كاتَ يكيتُ إذا صوّت.

- جنْدَ :jinda أي جيد؛ بمعنى العُنق.

- Koffa كُفَ: بمعنى القفا.

- مَرْ Mar: بمعنى نمر؛ الحيوان المفترس.

- زا : مذ - منذ، Za Bii: منذ أمس.

- إند Inda: الشرطية المقابلة: إن الشرطية، وإذا، ولعلّ.

هذه الكلمات وأمثالها من أصل اللغة القبطية التي تُعدّ أُمًّا للغات الإفريقية، وبخاصة النيلية الصحراوية، والموضوع بحاجةٍ إلى تريّث وبحث موضوعي.

٣- إظهار التقانة والمهارة في الاستعمال اللغوي:

أكثر شعب سُغَيْ من استعمال الكلمات العربية للافتخار وإظهار التفاضل بالتمكن من لغة الحضارة التي يُعدّ إتقانها معيار فضلٍ لصلتها بالإسلام والأنظمة السياسية القائمة، من تلك الكلمات:

- AlkaaŠi الكاش: أي الجزية أو الضريبة، واستعملت الكلمة في معنى مجازي للقسوة؛ لأن الجباة عُرفوا بالفظاظة والغلظة؛ ولا تستوعب معاجمهم اللغوية: العجز والفقر والرحمة. وقد استُعمل اللفظ نفسه للشُّرطي لدى أهل تنبكت: «الكاشي»، كما استعمل لفظ Kasa - كس- قسا: للسجن.

- Addaawa: أي الظلم، والكلمة استعمال مجازي للكلمة العربية دعوى: للقضاء والحكم.

- Haadimay هادمي: بمعنى الخدمة وتقديم المصالح للآخرين.

- Assafoo: لصلاة العشاء، وهي اقتراض جزئي من ساعة + أفّ AFFO واحدة بسُغَيْ أي ساعة واحدة، وذلك هي الفكرة السائدة في المجتمع بأن المدة الفاصلة بين صلاة المغرب والعشاء ساعة واحدة.

- كلمة Addawla: استُعملت في معنى مجازي لتدل

---

(١) عبد القادر إدريس أربون، اللغة العربية ثقافتها وأعلامها في مالي حتى نهاية القرن العشري الهجري، رسالة ماجستير، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، سنة ١٩٩٧م، ص١٥٨. نقلاً عن: يوسف، الحرف العربي واللغات الإفريقية، «العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية»، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة- تونس، ١٩٨٥م، ص١٦٧، لم أقف عليه.

(٢) مسعود نوح سدبا، مرجع سابق، ص٢٥٨.

(٣) المرجع نفسه، نقلاً: عن بول مارتي Paul Marty.

على الدرجة والشهرة، ونيل منصب عال.

- وكلمة Fuuru: أي طفأ المـاء، وغَلِي الماء، لعلّها مأخوذة من: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

- الطريف أن نجد استعمالاً مستعاراً من القرآن، مثل: لفظ Kutila بمعنى الافتراء والبهتان والإتيان بكذب لا أصل له، وهو مستوعب من التعبير القرآني: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠].

- وأشد طرافةً من هذا: استعمال كلمة Hoyan للصيد، والمعصية، ولعلّ اشتراك الكلمتين في مادة واحدة مستوعب من صيد اليهود السمك يوم سبتهم، وكانت هي المعصية التي استحقوا بها اللعنة والهلاك، كما وردت في سورة الأعراف الآية ١٦٣ وما بعدها.

- ومصطلح Alayni: للتعبير عن بلوغ المصيبة منتهاها، وهو مأخوذ من العين الذي يصيب الإنسان. والعين أو اللسان Deene- حسب تعبيرهم العادي- أنفذ من السلاح.

- و Salaamu: اسم لنوع من الحية، مستعارة من قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصَّافات: ٧٩]، وذلك من باب التفاؤل على غِرار العرب في تسميتهم الملدوغ سليماً.

وأحوجهم تعليم القرآن إلى اختراع مصطلحات لم يكن العربي محتاجاً إليها، مثل:

- Garda: لنصف الثُمُن في القرآن؛ حيث لاحظوا الصعوبة التي يلاقيها غير العربي في حفظ ثُمُن من القرآن الكريم، فلجؤوا إلى تجزئته إلى نصفين واصطلحوا عليها: Garda.

٤- الحنان إلى التاريخ وإثبات الهوية الإسلامية.

ب) مرحلة الاستيعاب والتكامل الثقافي.

١- استعمال الحرف العربي في الكتابة:

هجر السُعَيْ الرسومات الكتابية المتداولة لديهم للتعبير عن أفكارهم وخواطرهم لتصادم بعض مضامينها العقدية مع عقيدة الدين الجديد (الإسلام الحنيف)، ولم تعد تلك الرسومات تُستخدم إلا في نطاق محدود، في عالم الروحيات لدى الكهنة والسحرة[١]، فلابد- إذاً- من بديل، وأحسن بديل هو ما له علاقة بالعقيدة الجديدة، وهو الخط العربي.

لم نقف على تاريخ بدء الكتابة بالحرف العربي، وتطورها، ولا نماذجها الأولى، ولكن نفترض أنها نشأت في زمن مبكر من وصول الإسلام لتحقيق أهداف، منها:

١) **التواصل الكتابي:** استعمل شعب سُعَيْ الحرف العربي للتواصل الكتابي بلغتهم، إذْ لا يسمح لهم مستواهم اللغوي بالعربية بذلك؛ فلجؤوا إلى تسجيل أفكارهم وتحرير خطاباتهم من لغتهم بالحرف العربي.

٢) **التعلّم:** يلجأ المتعلم إلى استعمال تعليقاته، وتقييد معاني المفردات الصعبة عليه في الهوامش بلغته الأم، بالحرف العربي، ولا تزال هذه الحالة سارية المفعول في حلقات الدراسة المعاصرة، وتعليم الكبار لمحو الأمية الديني. وأقدم ما توصلنا إليه كإنتاج علمي هو المنسوب إلى أحمد بابا التنبكتي في محاولة إعداد معجم ثنائي اللغة (عربي - سُعَوِي) في أسماء التوابل والأشجار، ويُعدّ من تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة[٢].

٣) سدّ فقر المفردات لدى المؤلفين السودانيين ومحرري الرسائل:

بعد سقوط خلافة سُعَيْ السودانية الإسلامية، عقب الحملة المراكشية على أيدي عرب مسلمين، وسياسيين موالين لهم من أبناء المنطقة غير راضين بالنظام لأسباب سياسية واجتماعية، والزنادقة المارقين، المرتزقة من نصارى الإسبان والعلوج، تحت شعار الجهاد الإسلامي، تحت قيادة النظام السعدي المراكشي، وما خلّفته نكبة الأربعاء الكبرى- يوم الرابع والعشرين من المحرّم عام ١٠٠٢هـ-

(١) راجع:
Hassimi Oumarou Maiga, La contribution socio culturelle du peuple, songhay en Afrique, pp.145; 155.
Contribution socio culturelle du peuple, songhoy en Afrique, Hassimi Oumarou Manga.

(٢) راجع: مخطوط رقم ٣٧٧٦، بمعهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية.

من تقتيل العلماء وتشريدهم وأَسْرهم وتهجيرهم[1]، وما خلّفته تلك الأحداث من ضعف المستوى العلمي، وتقلُّص اللغة العربية عن ساحة الحياة العامة، وركاكة التعبير وفقر المفردات، لجأ الكُتَّاب إلى سدّ الفراغ المعجمي بمفردات سُغَيْ وتعبيراتها، وهاكم بعض النماذج:

٢- استعمال الحرف العربي في التأليف:

• **صاحب (الفتاش) كتب كلمات كثيرة من لغة سُغَيْ بالحرف العربي، مثل:**

- كُيْ بَنْدَا Koy banda: أي خليفة الحاكم.
- أهل توندي Tondi: أي سكان الجبل.
- دال Daali: رتبة عسكرية.
- بِسَوْكِري Bisaw cire: اسم مركب من «بِسَوْ»، و«كِرَي» بمعنى تحت (ظرف مكان)، و«بِسَوْ» نوع من الشجر، وهو المكان الذي بُني فيه الجامع الكبير جِنْكِري بِيرْ- بتنبكت.
- مَلْ كُيْ: حَاكم مالي.
- يَرْوَني مِلْكُنا: اسم بلدة، فتحرّف النطق إلى: أَرْوَانْ.
- انكوندا N'Konda: النملة، واسم قبيلة.
- حُونْدُ بير Hondu ber: الهضبة الكبيرة.
- زِيْفتا: نوع من الأرز.
- كَنتيا Kanca: نوع من القوارب البحرية.
- تِنْدَا Tenda : ورشة مهنية للخياطين أو غيرهم.

كما استعمل تراكيب وتعبيرات سُغَوية، مثل:

- أَرْزُرْ: جَرْي الماء.
- بِسْمِلْ بسملْ: عبارة ترحيب واستقبال.
- تَمَلا تَمَلا: عبارة استعطاف واسترحام[2].

كما استعمل تراكيب متأثرة بنظام تراكيب سُغَيْ، مثل:

- على من قبضت هذا؟ أي ممن؟.

• **مؤلف (تذكرة النسيان في ذكر ملوك السودان) (مجهول) استعمل مفردات، مثل:**

- الكناي Kanay: عرّبها باقتران ال؛ أي البطيخ.
- سَنْ كُورُ: كيس منسوج من ألياف نبات تشبه أغصانها غصن التمر Kongu.

وذلك أثناء حديثه عن صراع دار بين قائدين من قواد الباشا، «ثم سار إليه الجيش كلّهم فوجدوه هنالك كما يحبّ، وقاتله هو ومن معه حتى قبضوه له وأتاه، وأمر أن يجعله في سنكور مع أحجار ثقيلة، ورماه في البحر».

ومن التعبيرات التي استعملها أيضاً: «أدركوه خارج فم داره»، «وهو قائم على رأسه من فم داره»[3].

• **صاحب (ما وقع في التكرور السوداني مما بين تنبكت وجني):**

- «إلى أن وصلوا الكثيب كَنْغَوْ Kangaw»: الجوز الهندي. وواضح على الجملة بصمات التعبير المحلي، وقد غلب على أسلوبه الكتابي كله[4].

٣- استعمال الحرف العربي في الرسائل:

ظلت اللغة العربية- على الرغم من انحطاط المستوى- لغة تواصل، وأداة المراسلات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ويُغطّى عجز المفردات المعجمية ببدائل من قاموس سُغَيْ، وخاصة خلال فترة الاحتلال الفرنسي، والرسائل الغدامسية والوثائق القضائية خير شاهد لذلك[5].

ج) مرحلة النضج الفني ومراعاة الواقع:

درس السودانيون العربية وأتقنوها إتقاناً، وأسهموا في نشرها بالتأليف والتعليم داخل البلاد السودانية وخارجها[6].

---

(١) راجع: عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، مرجع سابق، ص (٢٨٨-٣١٢). ومحمود كعت، تاريخ الفتاش، مرجع سابق، ص٢٠٠.

(٢) راجع، محمود كعت، تاريخ الفتاش، المرجع السابق، ص (٥٤-٥٩، ٦٤-٦٥، ٦٨، ١٤٩-١٥٤، ١٠٨، ١٦٠)، وغيرها.

(٣) راجع: مؤلف مجهول، تذكرة النسيان، تحقيق: هوداس، ص (١٥، ٣٢، ١١٢).

(٤) المختار بن إسماعيل بن وديعة الله (يركوي تلف)، مخطوط رقم ٢٨١، بمعهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، ص٦.

(٥) علي بن محمد بن موسى، رسالة عيسى بن حميد في الأسعار مخطوط رقم ٥٦٦٤، بمعهد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، وغيرها.

(٦) راجع: د. أبوبكر إسماعيل ميغا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من ١٠٠هـ، ط١، مكتبة التوبة- الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص (٢٤، ٤٦، ٣٢، ٤٤،

وقد تم استيعابها في كل مجالات الحياة، فأشربت في القلوب، وجرت في الشرايين كالدم والماء، وقد حاكى السودانيون العرب حتى في اللباس ونمط الكلام باقتباس الأمثال والحكم، والطرف، إلى لغتهم، كحكايات جحا، وقصص ألف ليلة وليلة، حتى استُعير لفظ «جحا» إلى ثقافة سُغَيْ للدلالة على حماقة الشخص، يقال: - Bolanga Azzuhaa

حققت الحملة المغربية (المراكشية) نتائج مترابطة ومتسلسلة منطقياً:

- إسقاط النظام الشرعي بأيدي أجانب مرتزقة لهدف اقتصادي اجتماعي وديني.
- انتشار الفوضى، وزرع الفزع والهلع في المجتمع.
- فقدان الاستقرار والأمن: مادياً ونفسيًا.
- انتشار الفتن والحروب، فالنهب والسلب واسترقاق الضعفاء[1].
- تشريد العلماء وضياع كتبهم بالآلاف.

فلجأ الناس إلى البراري؛ لضمان أرواحهم وشرفهم وأموالهم، فانشغلوا عن التعلم والتعليم بمشكلات الحياة اليومية لتأمين ما يسد رمقهم، حتى تقلصت اللغة العربية وثقافتها عن ساحة السودان، ولكن ظلّ أفرادٌ محافظين لهذا التراث بالتعلم والدراسة، حتى بلغوا القمة في العلوم العربية والإسلامية، وجعلوا تعليمها ونشر الدعوة الإسلامية نصب أعينهم، فتبلورت لديهم استراتيجيات:

أ- التعليم ثنائي اللغة. ب - النَّظْمُ التعليمي للدعوة.

١- التعليم ثنائي اللغة:

لغة سُغَيْ، هي المهيمنة على الساحة السودانية، هي أداة التواصل بين سكان الحضر، حتى أُطلق عليها كُيرَى چِين Koyra ciini لغة البلد؛ لذلك اعتمدها الكتّاب في نظمهم التعليمية بوصفها لغةً أساسية لتسهيل تعلّم العربية على سكان السودان، وتعليم العرب الوافدين الكلمات الأساسية من لغة سُغَيْ للتواصل؛ لتيسير اندماجهم الاجتماعي، وإعداد الدعاة منهم لتبليغ رسالتهم، كهذا الرجز المنسوب إلى محمد بن يعيش الكلادي[2]:

يا سائلي عن لغة السودان
استمع جواباً عند ذي التبيان
الله: يَرْكَي، ودي: الرسول
صلاة: جِنْگَرْ صوم: هَوْمي، قالوا
تيمم: تيمَمْ، وضوء: أَلْوَلا
تكبيرة: كَبَّرْ على من صلى
فطرة: فيرمي، هكذا السحور
سُهَرَيْ، عشاء قيل فيه هَوْرَيْ
ثمّ الغداء عندهم: چيركَسَيْ
مع چيركاري عند بعض جنس[3]

٢- النظم التعليمي بسُغَيْ للدعوة:

انتشر تيار الفساد في المجتمع السوداني لغياب سلطة شرعية تُوجِّه وتحاسب، وخاصةً خلال الاحتلال الفرنسي، فتبنّى الدعاة إستراتيجيةً تراعي واقع المجتمع، ألا هي اعتماد لغة سُغَيْ في بناء قصائد تعليمية، وهي عملية تتطلب مستوى لغوياً عالياً، ولكن علماء السودان أثبتوا جدارتهم وتمكنّهم في اللغتين؛ حيث نظموا على بحور الخليل بن أحمد، مستفيدين من الدراسات البلاغية، وبخاصة البيانية والبديعية، كما

---

٢٣٩).

(١) يراجع:
- محمود كعت الثالث، الفتاش، مرجع سابق، ص٢٠٨، وما بعدها.
- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، (الباب الثلاثون)، تحقيق أهوداس وآخر، المكتبة الأمريكية والشرقية، باريس، ١٩٨١، ص (٢١٠-٢١٩).
- محمد محمود ولد الشيخ، الترجمان في تاريخ الصحراء، مخطوط رقم ٧٦٢، بمعهد أحمد الدراسات العليا والبحوث الإسلامية.
- ويراجع أيضاً: تذكرة النسيان في ذكر ملوك السودان، كل صفحاتها.

(٢) محمود محمد، المخطوطات العربية، والمكتوب بالحرف العربي في منطقته الساحل الإفريقي، مذكرة غير منشورة، ص٢٧.

(٣) مخطوط رقم ٢٧٦١، بمعهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، مفقودة الآن مع الأحداث المأساوية ٢٠١٢م.
وراجع: عبد القادر إدريس أربون ميغا، اللغة العربية ثقافتها وأعلامها في مالي حتى نهاية القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير- كلية الدعوة الإسلامية- ١٩٩٧م، ص٥٩.

استعملوا لغة موسيقية تجذب القلوب وتلهيها عن الأغاني المحرّمة، وقد غطّت هذه القصائد معظم المجالات والموضوعات، وفي مقدمتها التعليم الديني والأخلاقي.

وتسير- حسب الاستعمال اللغوي- في نمطين:

١- **لغة سُغَيْ خليط بكلمات عربية:** كرثاء ألفا محمن مبارك المصطفى سيسي[١] في رثاء أخته، على البحر المتقارب:

كَدَرَنِي رُقَادي لأخت الوِدادي
سَهَرَني سُهادي بعد أَيْوَيْم كَاكَا

يلاحظ أنه أكمل الشطر الثاني بكلمتي: «أيوم» بمعنى أختي، و«كاكا» عَلَمٌ عليها، وبمعنى جَّدة/جد.

ويقول أيضاً:

ربي ذا الجلال صاحب العلا
مُورنْدَي بَلا بجاه أحمدَ
رَسول ذي السنا نَيْ يَدُ مُنَى
عند ربّنا سَنْ محمد

يلاحظ أن الشطر الأول بالعربية، والثاني تضمن جملة دعائية سُغَيْ «مُورَنديْ بلا»: (ابْعدني عن البلاء).

والبيت الثاني في الشطر الأول كذلك «نَيْ يَدُ مُنَى»: (دعني أحصل على الأمنية).

٢- **لغة بسُغَيْ خالصة:**

يقول في الرَجز:

(١) أَيْ هُنْدَا هَمْبُور جَاجُبي
جَنْكَمْ كَتلي كَكَرْتبيْ
(٢) هُوَان ميكُرْ وَنْدَاهيْ
وَسَابَ الرسول محمد
(٣) فَيْدَ نكدرا نك مو چَلَمْ
هُوَان مي كُرْ كَيْ كَلَمْ
(٤) مور الزنا ك رُكيْ سَوَيْ
أَيْسَن محمد موسَوَيْ
(٥) هَاو نَدْ نُوني مَرَانْت وي
وَسَاب الرسول محمد

ترجمة معاني الأبيات:

(١) خافت نفسي العُجبَ
تبختر، وترفع، رفع عمامة
(٢) لدى باب كل بيت أجنبي، تحية
امدحوا الرسول محمدا
(٣) انْتَه من أن تمشي وتهمز
باب كلّ بيت تسرق النظر
(٤) ابتعد عن الزنا الذي لا يحب الله
وسيدي محمد أيضاً لا يحب
(٥) عار ونار مجتمعتان
امدحوا الرسول محمدا

إن القارئ لأعمال هذا الشيخ ليُفاجأ بهيمنة النحو العربي على تفكيره اللغوي، وهو يستعمل لغته الأم، مثل قوله في موضع آخر: «مَمُورَ الفسادَ انْدَ مُنكرَ»؛ حيث نصب الكلمتين: «الفسادَ»، «مُنكرَ»، الأولى على المفعولية لفعل الأمر الدال على النهي، (اجتنب الفسادَ)، والثانية على التبعية بعطف النسق «انْدَ» المعادلة لواو العطف. كما يبرز تمكنه في علم البلاغة العربية، وبخاصةٍ البديعيات[٢].

خلاصة:

هذا التأثير ثمرة احتكاك بين الشعب السوداني والعرب المسلمين، ويعكس لنا نوعية العلاقة القائمة على تبادل الاحترام والتعامل الرفيع من الدعاة المسلمين، مما فتح لهم قلوب السودان واستقبلوهم بحفاوة، وغرس فيهم حب العروبة، والاتجاه الإيجابي نحو العربية والعروبة؛ فانتهت بتزاوج فكري ثقافي، وذوبان اجتماعي؛ بسَوْدَنة كثيرٍ من العرب لغةً، وادعاء بعض السودان نسب العروبة.

إن السودان الغربي لا يزال يربطه بالعرب علاقة جوار ودبلوماسية، ويمكن توظيف تلك العلاقة لترقية الثقافة العربية الإسلامية، وترسيخها عبر نشاطات علمية وثقافية ■

(١) ألفا مَحَمَنْ (محمد) بن المبارك بن المصطفى بن ألفا صالح (سالم) بن بودة بن عبد الرحمن بن التركي. ولد سنة ١٨٧٥م، بمدينة تمبكتو المشهورة، وبها تربى وترعرع وتتلمذ لدى علمائها، وأخذ منهم المبادئ في اللغة العربية والعلوم الإسلامية والأدبية، وتوفي ٢١ من جمادى الأخيرة عام ١٣٧٨هـ الموافق للسنة الميلادية ١٩٥٩م.

(٢) راجع: سيد الإمام ميغا، دراسة قصائد بلغة سغي مكتوبة بالحرف العربي: إنتاج ألفا محمن بن مبارك أنموذجاً. رسالة الماجستير- قسم اللغة العربية، جامعة الآداب والعلوم الإنسانية باماكو/ مالي، ٢٠١٨-٢٠١٩م، ص١٠٤ وما بعدها.